الخطوات الإجرائية في المباحث الأسلوبية البلاغية ومزالق البحث.

د/سليم سعداني

sadani66@yahoo.fr

جامعة حمة لخضر الوادي /الجزائر

تاريخ الإرسال :2019-09-27 تاريخ القبول: 2019-12-01تاريخ النشر: 2019-12-31

الملخص:

اقترنت الأسلوبية بعدة علوم ولعلّ أكثرها صلة بها البلاغة؛ حيث تظهر هذه الصّلة جلية في مباحث الأسلوبية الاختيارية التي تقابل المباحث التركيبة المرتبطة بالنّحو، وطلبتنا اليوم سواء تعلق الأمر بمذكرات الماستر أم أطروحات الدكتوراه يميلون بشدّة إلى الدراسات الأسلوبية، مرّة بحثا عن الخصائص الأسلوبية في مدوّنة ما، ومرّة في محدّدات الأسلوب المتعلّقة بمباحث الاختيار، أو التّركيب، والانزياحات بأنواعها، وهنا غالبا ما يغيب عن الطلبة الباحثين ما ينماز به الغرض من البحث الأسلوبي عن الغرض من البحث البلاغي، هذا الغرض الذي له نفس المنطلق في كلا العلمين ويسايره لكن ليست نقطة انتهاء كليهما واحدة، وهذا ما نودّ التعرض من خلال هذا البحث موضحين الخطوات الإجرائية للبحث الأسلوبي وبعض المزالق التي قد يقع فيها الباحث أثناء الدّراسة الأسلوبية، وما تعلّق بها.

الكلمات المفتاحية: الأسلوبية ، البلاغة، الانزياح، التركيب، الاختيار،

Abstract: The Procedural Steps in Stylistic Rhetorical Research and its Pitfalls

Stylistics has been related to several sciences notably rhetoric. This relationship is evident in stylistics subsections at the level of replacement axis. Nowadays, our students' interest is directed to stylistics in conducting their master dissertations or PhD thesis. Their main goal is to investigate stylistic features in a corpus as well as stylistic specifiers related to subsections of replacement axis, structural axis and deviations. Students are often unable to discern the discrepancies between the purpose of stylistic and rhetorical research. This purpose has the same principle in both sciences; however, they do not end at the same point. This is what we would like to evince through this research explaining the procedural steps of stylistic research.

Kye words: Stylistics, Rhetoric, Deviation, replacement axis, structural axis.

تداخل الأسلوبية والبلاغة.

إن صلات القرابة بين البلاغة والأسلوبية هي ما جعل البحث في مجاليهما متشابها إلى حدّ بعيد، وهو نفسه ما نتج عنه خلط بين بعض مراحل الدراسات الأسلوبية بالدراسات البلاغية لدى طلبتنا في مذكراتهم وأطاريحهم، وبالعودة إلى مصنفات الأسلوبية سنجد إقرار أغلب الدّارسين لهذه العلاقة بين العلمين، ولا أدل على ذلك وجود مؤلفات عناوينها (البلاغة والأسلوبية) ككتاب هنريش بليث(Heinrich F.Plett)، وكتاب محمد عبد المطّلب، كما نجد تخصّصات تفتح في الماجستير سابقا والماستر حديثا بنفس التّسمية.

ولتوضيح هذه العلاقة، دعنا نبدأ بما بدأ به منذر عياشي كتابه (علم الأسلوب) إذ يقول "إذ أقدّم إليك عزيزي القارئ هذا الكتاب لا أغريك ببضاعة جديدة مستوردة فعلم الأسلوب ذو نسب عريق عندنا، لأن أصوله ترجع إلى علوم البلاغة، وثقافتنا العربية تزدهي بتراث غني في علوم البلاغة"[1] إلا أن هذه العلاقة الوطيدة بين العلمين لا ينبغي أن تُفهم تمام التّطابق بينهما، "إنّ الحديث عن الأسلوبية من حيث هي علم له متصوراته، وله مقاييسه في التّعامل مع الخطاب الأدبي وتحليله، يجعله كل ذلك مفارقا لبعض العلوم التي تشترك معه في موضوعه، وهو (الخطاب الأدبي) ومنها علم البلاغة"[2] وغير بعيد عن هذا ما ذكره هنريش بليث، يقول: "تقيم البلاغة والأسلوبية منذ زمن، علاقات وطيدة: تتقلّص الأسلوبية أحيانا حتّى لا تعدو أن تكون جزءا من نموذج التّواصل البلاغي، وتنفصل أحيانا عن هذا النّموذج وتتّسع حتى لتكاد تكون تمثّل البلاغة كلّها"[3] وقد اقترح نور الدين السّد جدولا أوضح فيه أوجه الاختلاف والاتفاق بين العلمين مقتبسا ذلك مما جاء في كتاب الأسلوبية والأسلوب لــعبد السلام المسدي نلخصه فيما يلي[4]:

علم البلاغة	الأسلوبية
علم معياري	علم وصفي ينفي عن نفسه المعيارية
يرسم الأحكام التقييمية	لا يطلق الأحكام التقيمية
يفصل الشكل عن المضمون	لا يفصل بين الشكل والمضمون
يهتم بفصاحة الألفاظ وانسجام الأصوات في تركيب اللفظ ويقول بهجر الألفاظ غير الفصيحة والمركبة من أصوات متقاربة في المخارج والصفات	يدرس الألفاظ والتراكيب الفصيحة وغير الفصيحة في الخطاب ويحللها ويحدد وظائفها ولا يقول بهجر أي عنصر من عناصر البحث
لا يحدد السمات المهمينة على الخطاب	يحدد السمات المهيمنة على الخطاب ويهتم بالسمات الأدبية
يدرس الخطاب الأدبي دراسة جزئية	تدرس الخطاب دراسة شمولية من حيث الظاهر والباطن
يطلق الأحكام القيميةعلى أجزاء من الخطاب	لا يطلق أحكاما قيمية على أجزاء من الخطاب أو على الخطاب كله...

مراحل الدّراسة الأسلوبة والكفايات التي تتطلبها.

عندما يشرع الباحث في دراسة موضوع ما خاصة في المباحث اللسانية، ولتكن طبيعة البحث أكاديمية، كبحث الماجستير أو الماستر، أو أطروحة الدكتوراه، سيجد نفسه أمام مدوّنة ما بغض النّظر عن طبيعتها وجنسها، سيكون من المحتّم عليه المرور بثلاث مراحل أساسية. تستوجب كلّ مرحلة كفاية ما، ولنا أن نبين ذلك فيما يلي:

المرحلة الأولى: وتقابلها كفاية تحصيلية:

وهي كمّية من المعارف العلمية النّظرية التي تؤهل الباحث من معرفة ما يتعلّق بالقواعد النظرية للمبحث الذي يودّ البحث فيه، أيّا كانت طبيعة ذلك البحث، فلا يمكن للباحث عن ظواهر نوحية متعلّقة بخصائص الابتداء في النّحو - مثلا- ألّا يكون ملمّا بالحدّ الأدنى لخصائص بناء الجملة الاسمية وأنواع الابتداء والخبر، ولا الباحث عن الاستعارة ألّا يكون لديه معارف نظرية عن المجاز وأنواعه، فهذه المعارف هي بمثابة المفاتيح والآليات التي ستكون وسيلة العمل، وهذه المعارف هي ما يمكن أن يستغلّه الباحث في بحثه تقديما لجزئه النّظري فيه، وهذه المرحلة مشتركة معارفها بين مباحث البلاغة والأسلوبية، إذا تعلّق الأمر في مستوى التركيب والاختيار والعدول (الانزياح).

المرحلة الثّانية: وتقابلها كفاية تطبيقة:

ليس بالضّرورة لكل من امتلك الكفاية التّحصيلية، أن تمكّنه تلك الكفاية من الكفاية التّطبيقية، لأن امتلاك المفتاح لا يعني أيضا بالضرورة حسن استعمالها، إذ يحتاج الباحث إلى مران وفطنة بعد معرفته -مثلا – لطرق بناء الجملة الاسمية، حتّى يتمكّن من ملاحقتها في المدوّنة والبحث عنها، كونها ليست جاهزة بل هي بين طيات ظواهر إسنادية أخرى متعدّدة، واستخراجها يتطلب حسن التّمكن من الكفاية التّطبيقية، وهذه المرحلة تطابق مرحلة الوصف عند ريفاتير والتي يراها: "مرحلة اكتشاف الظواهر وتعيينها وتسمح للقارئ، بإدراك وجوه الاختلاف بين بنية النّص والبنية النموذج القائمة في حسّه اللغوي المرجع، فيدرك التجاوزات والمجازات وصنوف الصياغة التي توتّر اطمئنانه اللغوي فيقصيها أو تلفظ فرضياته»[5] وما تلك البنية النوذج القائمة في ذهنه إلّا تلك القواعد النّظرية التي ذكرناها في المرحلة الأولى في الكفاية التّحصيلية، وتبقى هذه المرحلة كذلك مشتركة في المباحث البلاغية والأسلوبية التي أشرنا إليها سابقا.

المرحلة الثّالثة: وتقابلها كفاية تأويلية:

بعد الإلمام النّظري بالقواعد الخاصة بعلم ما، وبعد التّدرب والتّمرن على استنطاق النّص واستخراج الظّواهر المراد إبرازها، تأتي المرحلة الأهم وهي مرحلة التّأويل، وتختلف حسب اختلاف طبيعة الدّراسة نحوية، بلاغية، أسلوبية، سيميائية، تداولية..الخ، وتعدّ هذه المرحلة خاصة في المباحث اللسانية الحديثة من أهم المراحل،"وعندها يتمكن القارئ من الغوص في النّص والانسياق في أعطافه وفكّه على نحو تترابط فيه الأمور وتتداعى ويفعل بعضها في بعض»[6] إذ من خلالها يتمّ إبراز الوجه الدلالي والجمالي وعلاقته المباشرة بطبيعة المدوّنة بل في موقف ما من تلك المدوّنة، وتُعدّ هذه المرحلة مفترق الطرق بين مختلف الدّراسات، فيتطلب التّأويل والتّفسير رؤية تتفق مع أغراض وأهداف طبيعة المبحث، والعلم الذي ينتمي إليه.

إن هذه المراحل الثّلاث، تتفاوت في مقدرة الباحث على التّمكن منها، فأول تلك المراحل وهي المرحلة التّحصيلية، لا تستوجب من الباحث إلا كفاية الذاكرة، وهو أمر متاح بقدر كبير لكلّ الدّارسين، وتليها صعوبة المرحلة الثّانية وهي مرحلة التطبيق، فليس كلّ من امتلك المعرفة النّظرية قادرا على التّطبيق، إذ لا يحقق هذه الكفاية إلا من أكثر المران والتّدرب، لتأتي أهمّ وأصعب المراحل وهي التي تستوجب كفاية تأويلية، وهي كفاية ذهنية لا تمتلك لا بالتحصيل ولا بالتّطبيق، بل هي موهبة - قد تنمى وتتطور بعض الشيء- تتفاوت فيها القوي الذّهنية بين بني البشر، وهنا يظهر تفاوت القدرات الذّاتية ويتميّز عمق بحث ما عن بحث آخر، ويمكن أن نلخّص ما سبق ذكره في الجدول التّالي:

مراحل البحث		
المرحلة الأولى	المرحلة الثّانية	المرحلة الثّالثة
كفاية تحصيلية	كفاية تطبيقية	كفاية تأويلية
جمع وحفظ مجموعة من المعارف	القدرة على استعمال وتوظيف تلك المعارف	القدرة على تأويل الظواهر وربطها بالسياقات واستشفاف دلالاتها وجمالياتها

المباحث الأسلوبية والخطوات الإجرائية:

يمكن أن تُتناول الدراسة الأسلوبية من خلال عدّة مباحث حسب الغاية من البحث، وأيّا كانت طبيعة المبحث المختار، ينبغي أن يمرّ بتلك المراحل الثّلاث التي سبق الإشارة لها، وهنا سنعرض لأهم المباحث الأسلوبية.

تتجلى علاقة الأسلوبية باللسانيات باستعانة الأولى بآليات الثّانية، لذلك يرى ميشال آريفاي (Michel Arrivé) بـــ: "أن الأسلوبية وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات"[7] وهذا يعني أن المباحث الأسلوبية تكمن في تلك المستويات اللغوية التي صنّفتها اللسانيات؛ صوتية وتركيبة ودلالية، غير أنها - أي الأسلوبية- لا تتوقف عند وصفها كبنى تتداخل مع بعضها، بل تتعدّى ذلك فتبحث آثارها بطرق مختلفة، ولغايات متنوّعة من ذلك ما يلي:

السّمة الأسلوبية:

من المباحث الأسلوبية البحث عن السّمة الأسلوبية، يعرّف ريفاتير(Michael Riffaterre) الأسلوبية على أنّها علم يهدف إلى الكشف عن العناصر المميّزة[8] ويمكن أن يكون ذلك متعلّقا بالبحث عن سمة خاصة لكاتب ما، أو للبحث عن سمة خاصة في كتابة ما، إذ يمكن أن نجد سمة مرافقة للكاتب في كتباته جميعا تميزه عن غيره من الكتاب، يقول دي لوفر(F.Deloffre): "إنّ الأسلوب الفردي حقيقة بما أنّه يتسنّى لمن كان له بعض الخبرة أن يميّز عشرين بيتا من الشّعر إن كانت لرسين (Racine) أو لكرناي، (Corneille)."[9] كما يمكن في مستوى آخر أن نجد سمة أخرى تميز كتابة عن أخرى لنفس الكاتب يكون الفارق بينهما زمانيا، أو طبيعة جنس وموضوع النّص، ويمكن أن يكون البحث في مثل هذا في جميع المستويات اللسانية المذكورة آنفا.

الخصائص الأسلوبية:

يشبه البحث عن الخصائص الأسلوبية إلى حدّ بعيد البحث عن السّمات الأسلوبية، إلا أنّ الأوّل تكون فيه مقابلة الظواهر المستشفّة مع النّص حينا ومع الكاتب حينا آخر حسب طبيعة البحث، بينما في البحث عن الخصائص تكون فيه مقابلة الظّواهر المسجّلة بطبيعة اللغة، فهي" تعنى باستكشاف الخصائص والمكونات والسمات الأسلوبية التي يتميز بها خطاب أو نص أدبي عن آخر على مستوى البناء...ورصد الآثار الأسلوبية العامة المشتركة."[10] كأن نلاحظ مثلا على مستوى التركيب أن بناء الجمل غلبت عليه الجمل الاسمية، وأن في هذه الجمل الغلبة للجمل المنسوخة وأن النّسخ كان في غالبه بالأداة كذا..والأمر ذاته في المستوى الصّوتي والدّلالي، وللملاحظة، يمكن هنا أن نحوّل البحث بيسر إلى السّمة الأسلوبية إذا عدنا من جديد لمقاربة هذه الظّواهر مقابلة للكاتب أو طبيعة النّص.

العدول أو الانزياح الأسلوبي:

من أكثر المباحث بل لعلّ أكثرها وأهمّها في الأسلوبية البحث في الانزياحات، يعرّفه محمد عبد المطّلب بـ:« رصد انحراف الكلام عن نسقه المثالي المألوف»[11]، أمّا نور الدين السّد فيقول عنه: «هو انحراف الكلام عن نسقه المألوف، وهو حدث لغوي، يظهر في تشكيل الكلام وصياغته، ويمكن بواسطته التعرف على طبيعة الأسلوب الأدبي، بل يمكن اعتبار الانزياح هو الأسلوب الأدبي ذاته.»[12] ويؤكد هذه الرؤية الاصطلاحية، التي ترى أن الأسلوب هو الانزياح نفسه كثير من الدارسين، ونستنتج من ذلك أن من عرف الأسلوب بالانزياح، يعرف الانزياح بالأسلوب، وممن ذهب إلى ذلك (فيلي ساندرس)(Sanders Willy) الذي عد الأسلوبية علما خاصا بالانزياحات، وهو ما أكّده، أسغود(Osgood) بقوله إن الأسلوب خروج فردي على المعيار لصالح المواقف التي يصورها النص.[13]

ويمكن أن نجد المظاهر المنزاحة في المستوى التركيبي كما نجدها في المستوى الاختياري، يقول أحمد محمد ويس: :«إذا كان قوام النص لا يعدو أن يكون في النهاية إلا كلمات وجملا، فإن الانزياح قادر على أن يجيء في الكثير من هذه الكلمات، وهذه الجمل. وربما صح من أجل ذلك أن تنقسم الانزياحات إلى نوعين

رئيسيين تنطوي فيهما كل أشكال الانزياح . فأما النوع الأول فهو ما يكون فيه الانزياح متعلقا بجوهر المادة اللغوية مما سماه كوهن (Jean Cohen) (الانزياح الاستبدالي) وأما النوع الآخر فهو يتعلق بتركيب هذه مع جاراتها في السياق الذي ترد فيه، وهذا ما سمي (الانزياح التركيبي).»[14]، لكن نلاحظ هنا أنّه يمكن أن يكون على مستوى الصّوت كذلك، غير أنّ القاعدة التي يخرقها الاستعمال هذه المرّة تكون من داخل النّص لا من خارجه كالمستويين السّابقين، وسنشير لذلك لاحقا.

العدول التركيبي: يمكن لأي سلسلة كلامية مترابطة أن تخرق بعدة طرق، وقد حددت عند بعض الباحثين، كـ د/عبد الباسط محمود، في ثلاثة مباحث حددها في، الحذف، والاعتراض، والتقديم والتأخير.[15] غير أن آخرين، كانت لهم تسميات أخرى (فهنريش بليث)، يرى العمليات التي تخرق المعيار، في الزيادة والنقص والتعويض، والتبادل.[16] قاصدا بالتبادل تبادل المواقع، ويكتفي بعضهم بذكر التقديم، والحذف، إذ "حين نذكر التقديم، فينبغي بداهة أن يغنينا ذلك عن ذكر التأخير، لأننا حين نقدم الخبر فإننا في نفس الوقت نؤخر المبتدأ، وحين نقدم المفعول فإننا نكون قد أخرنا الفاعل."[17] لكن إذا كان هذا رأي البناء النحوي فإن النظرة الأسلوبية تختلف، كون الغرض قد يكون في هذه العملية التركيز على التقديم وحده، وقد يكون التركيز على التأخير وحده.

العدول الاختياري: : إذا كان محور التركيب يعتمد على بناء الجملة، حسب قواعد اللغة، فمحور الاستبدال، هو المتسع الفسيح الذي يسمح للمبدع باستعمال قدراته في الاختيار، والنظم، ويرى الدارسون أن "الاستعارة عماد هذا النوع من الانزياح".[18] وهو ما ذهب إليه صلاح فضل إذ يعتبر هذا المحور هو مجال التعبيرات المجازية التصويرية، من تشبيه واستعارة وغيرها[19]. فطواعية اللغة، وقدرة الشاعر، على الاستعمال هما العنصران الأساسيان في إحداث هذا النوع من الانزياح، رغم أن الأصل في،" مواضعة اللغات في مبدأ النشأة، أن يكون لكل دال مدلول واحد، ولكل مدلول دال واحد، غير أن جدلية الاستعمال تُرضخ عناصر اللغة إلى تفاعل عضوي بموجبه تنزاح، الألفاظ تبعا لسياقاتها في الاستعمال عن معانيها الوضعية."[20] وغالبا ما تكون مباحث هذا النّوع من العدول في الاستعارة والمجاز المرسل والعقلي، والكناية، وما قد تقتضيه الدّراسة في مباحث الحقول الدّلالية.

ويمكن أن نمثّل للخطوات السّالفة في مبحث أسلوبي على (مستوى التّركيب) بالنّموذج الموالي من خلال آيتين من سورة الأعراف قوله تعالى:

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾[الأعراف:116/115].

المرحلة الأولى: وتقابلها الكفاية النّظرية، إذ على الدّارس أن يكون على علم أن المباحث الأسلوبية في المستوى التّركيبي، تضمُّ عدّة مباحث من بينها (الحذف).

المرحلة الثّانية: وتقابلها الكفاية التّطبيقيّة، فعندما يواجه الباحث نصّ الآيتين الكريمتين عليه أن يكون قادرا اكتشاف مواطن الحذف ففي نموذجنا هذا ينبغي أن يدرك أن الفعل (ألقى) فعلٌ متعدٍّ يحتاج مفعولا، وأن اسم الفاعل يقوم بعمل فعله، عندها سيلاحظ في الآيتين حذفا للمفعول به في أربعة مواضع، (تلقي....)، (الملقين...)، (أَلْقُوا...)، (أَلْقَوْا...).

المرحلة الثّالثة: وتقابلها الكفاية التّأويليّة، فمن الباحثين من علّق على هذا الحذف بقوله "والحذف هنا لضيق المقام فلقد كان السّحرة يتعجّلون الظّهور على موسى عليه السّلام ليفوزوا بما وُعدوا به من قبل فرعون، كما كان موسى عليه السّلام يتعجّل ظهور الحقّ ثقة بوعد الله فلم يكن المقام يسمح بالتّفصيل."[21]، لكن البحث الأسلوبي لا ينبغي أن يقف عند تأويل مقنّن يمكن أن يكون صالحا لأي حذف في أيّ موقع آخر، بل تجده يصبو لربط الظّاهرة بخصوصيّة الموضوع أحيانا وخصوصية المرسل أحيانا أخرى، ولكلّ ذلك علاقة بالأثر على المتلقّي لهذا النّص، وحتّى يتأتّى ذلك ينبغي محاولة ربط هذا الحذف المكثّف في الآيتين بمقام المشهد القصصي بين السّحرة وموسى عليه السّلام فقد «اجتمع النّاس في مكان المعارضة في ضحى يوم الزّينة، يوم عيدهم،

وجلس فرعون على سرير مملكته واصطف له أكابر دولته ووقف النّاس يمنة ويسرة، وأقبل موسى عليه السّلام متوكّئا على عصاه ومعه أخاه هارون.»[22] فيمكن أن نقسّم الشّخوص في هذا المشهد إلى أربعة:

- موسى وهارون عليهما السّلام: ويمثّلان الرّسالة الإلهية.
- فرعون:ويمثل طرف المعارضة.
- السّحرة: وسيلة فرعون.
- الجمهور الحاضر، ومعهم القارئ أو السّامع للقصّة القرآنية.

فَوقْع الحذف على كلّ طرف من هؤلاء ليس واحدا، فقول السّحرة (إمّا أن تلقي) دون ذكر الملقى إشارة إلى فرعون أن السّحرة مستعدّون لأيّ شيء سيلقيه موسى دون تحديد، وفي الوقت ذاته إشارة إلى موسى عليه السّلام أنّهم لا يعبؤون بأيّ شيء سيلقيه أيا كان وفي قولهم (وإمّا أن نكون نحن الملقين) بحذف المُلْقَى، فمن المعلوم أنّ أهمّ ما يعتمد عليه السّاحر في التّأثير هو المفاجأة والإخفاء فعدم تصريحهم بالمفعول إثارة للمتلقّين من جهة، ومحاولة إرباك موسى وهارون عليهما السّلام. وفي ردّ موسى عليه السّلام، (قال ألقُوا)، بحذف المفعول نفس الوقع عليهم زيادة على عدم حصول الإرباك الذي أرادوه به. فنجد أن هذا الحذف أُستُعْمِل كأداةٍ أسلوبية لها دورها والمُمَيّز الذي يحمل تأويله الخاص في المشهد ذاته، ولا يكون في غيره كذلك.

والباحث الأسلوبي قد تعترضه في أثناء بحثه إشكالات تجرّه لبعض المزالق ومن ذلك ما يلي:

مزلق مبحث الانزياح: إذا كان الأسلوب هو الانزياح، فهل يعني ذلك أنّ التعابير الّتي لا تحمل في ثناياها انزياحات خالية من الأسلوب أو أن أسلوبها لا يرقى لمصاف الأسلوب الذي يحمل انزياحا؟

إذا عدنا إلى ما ذكرناه في عنصر الانزياح وعدّه عند بعض الدّارسين أنّه هو الأسلوب ذاته، سنقع في إشكال إذ سيتبادر إلى أذهاننا أنّه لا أسلوب بلا انزياح، وهذا في الواقع ما دفع بعض الدّارسين إلى عدّ الانزياح مزلقا إذا تمّ عليه الاعتماد وحده في التّحليل الأسلوبي ، إذ سيُهمل عندها كلّ تعبير لا يحمل انزياحا، وقد تطرّق إلي هذا الإشكال صلاح فضل إذ يقول: " لكن تحديد الأسلوب على أساس هذا المفهوم للقاعدة يحصره في ظواهر محدودة للغاية، ويحرم الكتّاب الذين يراعون في مؤلفاتهم أن تتمشّى مع الاستعمال السّائد الجيّد للّغة من أن نعثر في كتاباتهم على أسلوب ما نحلّله"[23] يبدو للوهلة الأولى أن هذه الرؤية سليمة، لأنّه إذا كان الأسلوب قد ارتبط بالانزياح، فغياب الانزياح يعني غياب الأسلوب، فهل يعني ذلك، أنّ النّصوص التي لا نعثر فيها على انزياحات هي نصوص بغير أسلوب؟

من هذا المنظور يصبح الأسلوب في مواطن الانزياحات فقط، مزلقا، لذا فهو منظور يحتاج إلى بعض التّمييز فليس المقصود بالأسلوب في التعريفات السّابقة مفهوم الأسلوب العام إنّما المقصود به التّفرّد، الذي يحدثُ المفاجأة فتثير المتلقّي، ولا يعني ذلك أنّ إثارة المتلقّي لا تتأتى إلّا بخرق القاعدة المفاجئ له، وهذا يعني بطبيعة الحال أن الأسلوب الذي لا يحدث مفاجأة لا يخرج من دائرة الأسلوب إذا كان يحمل قيما جمالية.

مزلق مبحث الإحصاء: هل الإحصاء يحوّل الدراسة الأسلوبية إلى أعداد ويجعل من اللغة الأدبية لغةً بلا طعم ولا لون؟

يبدو أنّ الأسلوب والإحصاء كالمتضادّين ففي حين كون الإحصاء جافا صارما نجد الأسلوب مرنا مطاوعا قابلا لأيّ استعمال فكيف يمكن تطبيق الأول بمواصفاته السّابقة على الثّاني بطبيعته المرنة؟!

اعتبر بعض الّدارسين أن استعمال الإحصاء مزلقا يحوّل الدّراسة الأسلوبية إلى حسابات لا طائل منها معتمدين مستدلين على ذلك ما ورد عن بعض أعلام الأسلوبية من الغرب ومن العرب، من ذلك على سبيل المثال هذه الأقوال:

يقول في هذا الصّدد بيير جيرو(Pierre-Noël Giraud): "إنّ قضية استخدام الإحصاء في دراسة الأسلوب قضية مختلف عليها، والاعتراض المقدّم غالبا هو أن الأسلوب واقعة فردية ونوعيّة ولتعقيدها من جهة أخرى لا يمكن إدخالها في أيّة فئة مجرّدة وكمية للتحليل الإحصائي"[24] ، فالوقائع الفردية في نظره معقّدة لا يمكن أن تضبط بالمجرّدات والكمّيات.

ويقول صلاح فضل: "من نقط الضعف الخطيرة في الدّراسة الإحصائيّة للأسلوب أنّها لا تقيم عادة حسابا لتأثير السّياق، مع أنّنا نعرف من الدراسات التطبيقية أنّ السّياق له دورٌ حاسم في التحليل الأسلوبي. "[25] ذلك أن الإحصاء لا يمكن أن يطبّق إلا على ماهو قائم وموجود بالفعل والسّياق شيء خارج النّص.

ويقول محمد عبد المطّلب: «ربما لقي المنهج الإحصائي ما لم يلقه غيره من نقد وتجريح، لأننا عندما نعمد إلى الإحصاء في دراسة الأسلوب نحيل اللغة الأدبية على شيء بلا لون ولا طعم، إذ نهمل ما في التراكيب المتعلقة بالتعبير من إحساسات تتصل بالعالم النفسي، والعالم اللغوي بطبعه يتصل بعالم الإحساسات»[26]، وهنا أيضا سنجد الإحصاء عاجزا على أن يتخلّل الظواهر النّفسية كونها شبيهة بالسّياق أي غير واردة على سطح النّص.

فهل يعني ذلك أن استعمال الإحصاء يعدُّ مزلقا دائما؟

إن ماورد من نصوص تنتقد الإحصاء إنّما جاءت من باب التّحفظ لا المنع بدليل أن النّصوص الثّلاثة السّابقة نجد نفس كاتبيها وفي نفس المؤلّفات يقرّون هذا النهج في الدراسات الأسلوبية فنجد بيير جيرو يقول: "الإحصاء لا يتوانى عن فرض نفسه أداة من الأكثر فعالية في الأسلوب"[27] فهو يعتبره أداة ضرورية، وصلاح فضل يقول: "ولأن هذه الإجراءات الإحصائية الرياضية في التحليل الأسلوبي قد أدّت إلى نتائج طيبة في مجال تحديد مؤلفي النّصوص وتوضيح نسبتها إلى أصحابها فإنها تصبح بالغة الجدوى بالنّسبة للنّصوص المجهولة المؤلف أو المشكوك في صحة نسبتها إلى قائليها، مما يؤدي إلى توثيق النّصوص الأدبية والوصول بها إلى درجة عالية من الاحتمال الصحيح"[28] وكذلك محمد عبد المطلب يقول: « والذي لا شكّ فيه أنّ المنهج الإحصائي أصبح صاحب اليد الطّولى في مجال الأسلوبيات باعتباره نموذجا للدّقة العلمية التي لا تترك مجالا لذاتية النّاقد أو الباحث كي تنفذ إلى العمل الأدبي»[29]

وممن أكدوا على ضرورة وأهميّة هذا المنهج الإحصائي، هنريش بليث إذ يذكر في كتابه البلاغة والأسلوبية أنّ هذه الأسلوبية تنطلق من إمكانية الوصول إلى الملامح الأسلوبية للنصّ، عن طريق الكمّ، فتصبح القيم العدديّة أهمّ مقياس وبذلك تبعد الحدس تمامًا، وليتحقّق الهدف المنشود تقوم بتعداد العناصر المعجميّة في النّص، وتزداد نسبة نجاح هذا المنهج كلّما تنوّعت المقاييس من جهة وكلّما ازدادت مساحة النّص المدروس[30]

ويؤكد سعد مصلوح على أهمية هذا المنهج يقول إنّ « البعد الإحصائي في دراسة الأسلوب هو من المعايير الموضوعيّة الأساسيّة التي يمكن باستخدامها تشخيص الأساليب، وتمييز الفروق بينها، ويكاد ينفرد من بين المعايير الموضوعيّة بقابليّته لأن يُستخدم في قياس الخصائص الأسلوبيّة كائنا ما كان التعبير الذي يتبنّاه الباحث للأسلوب.» [31]، من خلال ما سبق يتّضح أن الاشكال ليس في المنهج افحصائي ذاته، إنّما الأمر متعلّق بحسن أو سوء هذا المنهج، وهذا في الواقع ينطبق على كلّ المناهج.

يمكن أن نخلص ممّا سبق أن الأسلوبية ذات صلة وطيدة بعدّة علوم لعلّ أكثرها ارتباطا بها اللسانيات والبلاغة، فهي تعتمد في مباحثها على تلك المستويات اللسانية المألوفة من تركيب واختيار ودلالة، وتمر الدراسة بثلاث مراحل، مرحلة أولى تستوجب كفاية نظرية، ورحلة ثانية تستوجب كفاية تطبيقيّة، وثالثة تستوجب كفاية تأويليّة، تشترك في المرحلة الأولى والثّانية مع علم البلاغة، خاصة إذا كان البحث متعلّقا بمباحث التركيب والاختيار، كما يمكن للباحث في الدراسة الأسلوبية أن ينحو أنحاء مختلفة، حسب وجهة بحثه، فقد يكون الغرض البحث عن السّمة الأسلوبية، وقد يكون عن خصائص الأسلوب، وقد يكون الغرض البحث في العدول (الانزياح) بأنواعه التركيبية والاختياريّة.

وقد يتعرّض الباحث لإشكالات تجرّه لبعض المزالق في بحثه، من ذلك الإكتفاء بالمرحلة الأولى والثّانية وعدم التعرض لتأويل الظواهر لصالح النّص، فلا يرقى البحث إلى الدراسة الأسلوبية عندها، كما يُعدّ البحث عن مواطن الانزياح وحدها إشكالا، إذ سيبتعد الدّارس بعض الخصائص الجمالية في العبارات التي لا يتخلّلها انزياح، وأخيرا مزلق الإحصاء عند استعماله في غير مواضعه، أو النّفور منه رغم ضرورته خوف إخراج الدّراسة من حيّز المرونة والسّلاسة الأدبية إلى جمود وصرامة الإحصاء.

المراجع:

- الاتجاهات الأسلوبية، جميل حمداوي، الألوكة، ط1، 2015م.
- الأسلوب دراسة لغوية إحصائيّة، سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1992م.
- الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط3، دت.
- الأسلوبية وتحليل الخطاب، نور الدين السد، ج1، دار هومة للطباعة والنّشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2010م.
- الأسلوبية، بيير جيرو، ترن منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 1994م.
- الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، أحمد محمد ويس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنّشر والتوزيع، ط1، 2005م.
- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، (ط1)،1994م.
- البلاغة والأسلوبية، هنريش بليث، تر، محمد العمري، أفريقيا الشرق، بيروت، دط، 1999م.
- الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مصطفى عبد السلام أبو شادي، مكتبة القرآن، القاهرة، دط، 1992م.
- دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، أحمد درويش، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (دط)، 1998م.
- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، دار الشّروق، بيروت، ط1، 1998م، ص 270.
- علم الأسلوب مدخل ومبادئ، منذر عياشي، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013م.
- الغزل في شعر بشار بن برد دراسة أسلوبية، عبد الباسط محمود، ليبيا: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، (دط)، 2005م.
- في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية، سعد مصلوح، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 1414هـ.
- المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، ط1، 2013م.
- مقدمة في الأسلوبية، رابح بن خوية، مطبعةnir المنطقة الصناعية حمروش، سكيكدة، الجزائر، ط1، 2007م.
- نحو نظرية أسلوبية لسانية، فيلي ساندرس، تر، د/خالد محمود جمعة، سوريا، دار الفكر،ط1، 2003م.

الهوامش:

[1] - علم الأسلوب مدخل ومبادئ، منذر عياشي، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2013م، ص11.
[2] - الأسلوبية وتحليل الخطاب،ج1، نور الدين السّد، دار هومة للطباعة والنّشر والتوزيع، دط، الجزائر، 2010م، ص27.
[3] - البلاغة والأسلوبية، هنريش بليث، تر، محمد العمري، أفريقيا الشرق، دط، بيروت، 1999م، ص19.
[4] - الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج1نور الدين السّد، ، ص28
[5] - نفسه، ص92.
[6] - نفسه، ص92.
[7] - الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط3، دت، ص48
[8] - نفسه، ص49.
[9] - نفسه، ص 60.
[10] - الاتجاهات الأسلوبية، جميل حمداوي، الألوكة، ط1، 2015م، ص42/41.
[11] - البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، 1994م، ص 286.
[12] - الأسلوبية وتحليل الخطاب، نور الدين السد، ج1، ص179.
[13] - ينظر، نحو نظرية أسلوبية لسانية، فيلي ساندرس، تر، د/خالد محمود جمعة، دار الفكر،ط1، سوريا،،2003م، ص36.
[14] - الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، أحمد محمد ويس، الالمؤسسة الجامعية للدراسات والنّشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2005م، ص111.
[15] - ينظر، الغزل في شعر بشار بن برد دراسة أسلوبية، عبد الباسط محمود، دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، (دط)، ليبيا، 2005م، ص256.
[16] - البلاغة والأسلوبية، هنريش بليث، ص67.
[17] - دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، أحمد درويش، ص169.
[18] - الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، أحمد محمد ويس، ص111.
[19] - ينظر، علم الأسلوب، صلاح فضل، ص119.
[20] - الأسلوبية والأسلوب،ج1عبد السلام المسدي، ، ص 54.
[21] - الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مصطفى عبد السلام أبو شادي، مكتبة القرآن، القاهرة، دط، 1992م، ص 68.
[22] - المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، ط1، 2013م، ص225.
[23] - علم الأسلوب، صلاح فضل، ص 214.
[24] - الأسلوبية، بيير جيرو، تر، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 1994م، ص133.
[25] - علم الأسلوب، صلاح فضل،ص 270.
[26] - البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب ، ص199/198.
[27] - الأسلوبية، بيير جيرو، ص134.
[28] - علم الأسلوب، صلاح فضل، ص 268.
[29] - البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ص 198.
[30] - ينظر، البلاغة والأسلوبية، هنريش بليث، تر، محمد العمري، ص59.
[31] - الأسلوب دراسة لغوية إحصائيّة، سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1992م، ص51.